الصباح الإسلامية
09
العدد 1888 - السنة السابعة
الإثنين 18 شعبان 1436 - الموافق 16 يونيو 2014
Monday 16 June 2014 - No.1888 - 7th Year

الرد على حجج الرافضين للمنهج العلمي في التفسير (2)

العلماء حرصوا على شرح الإشارات القرآنية وفق الحقائق المؤكدة والقوانين الثابتة

■ قضايا الخلق وإفنائه وإعادته لها من الإشارات في الكتاب والسنة ما يمكّن المسلم من الارتقاء بالنظريات إلى الحقائق

■ أروع ما يدركه المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع فيه

■ الدعوة القرآنية للتأمل واستخلاص سنن الله وتوظيفها في عمارة الأرض لا تتعطل أبداً

■ جوانب الإعجاز لا تنتقص من جلال الربوبية وتزيد المؤمنين ثباتاً وتقيم الحجة على الجاحدين

القول بأنه لايجوز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر كما لايجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة فهو كذلك كلام بعيد عن الحور، فقد حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تفسير الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة والقوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمهما في فهم ذلك أبدا، إلا في حالة الآيات القرآنية الكريمة، المتعلقة بالقضايا التي لا تخضع خضوعا مباشرا لحس الإنسان وإدراكه قضايا الخلق بأبعادها الثلاثة، وقضايا الإفناء والبعث. وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظا مبالغا فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللغظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجا في ذلك العمل الذي يقومون به في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة، وذلك لأن التفسير يبقى جهدا بشريا خالصا - بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، ومحدودية القدرة، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون، ولا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبدا، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبدا، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلما بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبدا، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك أبدا. فتكثر النظريات المفسرة لظواهر محددة، وتختلف باختلاف خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله تعالى أو في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن لم يستطع العلم المكتسب أن يقوم بذلك. فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالا بعيدا، وصدق الله العظيم إذ يقول : «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا» (الكهف:51).

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج في عمليات قابلة للتكرار والإعادة ، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك من مثل الأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة ، إذ يقول عز من قائل:

« أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (العنكبوت:19،20).

وفي ذلك ما يشير إلى أن بالأرض سجلا حافلا بالحقائق التي يمكن أن يستدل منها على كيفية بدء الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله تعالى إلى رسوله الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان.

وقضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها من الإشارات اللطيفة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- من الإشارات اللطيفة ما يمكن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

ولما كانت العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة في كثير من الأمور فإني أرى ضرورة فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولا، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة المقبولة، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو تطويرها أو تعديلها، وذلك لأن التفسير -كما سبق وأن أشرت- يبقى اجتهادا بشريا خالصا من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد قابلا للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل.

وإن في كون القرآن الكريم بيانا من الله تعالى إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه - كل في حقل تخصصه - على ضوء ما تجمع له من معارف وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة ، فالقرآن الكريم نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته، ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجا على القرآن الكريم بالمعارف المكتسبة، ولا انتصارا له بها فالقرآن الكريم - بالقطع - فوق ذلك كله، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفرا للناس من قبل أو في حسبانهم، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق. وذلك لأن الله تعالى قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد الذي يمكن حواس الإنسان المتأمل لها والمتفكر فيها والمتدبر لتفاصيل جرياتها من إدراك أسرارها -على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس-، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا تبارك وتعالى- وهو صاحب الفضل والمنة - بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعمه علينا -نحن العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع في الكون، وهي أدلة مدونة في صفحة السماء، وفي صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح، فما من انفجار حدث في الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولاتغير في المناخ إلا وهو مدون كذلك في صخور الأرض، وما من هبوط نيزك من النيازك على الأرض إلا وهو مسجل في صخورها.

ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه، وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل أبدا، انطلاقا من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى -دوما- مهيمنا عليها، ومحيطا بها، لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه، لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتا على إيمانهم.وتشرح صدور الباحثين عن الحق وتهديهم إليه وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين. وإذا أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا يتسحب على جلال كلام الله أبدا، والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ. فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف ، لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهما كاملا، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود اللغة وحدها.

ما تعرض له الصحابة من ابتلاء (4)

مصعب بن عمير وخبّاب بن الأرَتّ .. رحلة التضحية والصبر والجهاد

■ مصعب نموذج من تربية الإسلام للمترفين الشباب الذين وقفوا بعد إسلامهم أقوياء لا تقهرهم الشهوات

■ النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها وأسبابها وأن قبل النصر البلاء

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه انعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعب الحيس عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل، ولما علم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفا من أمه وقومه، فكان يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سرًا، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي، فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، وظل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شديدًا حتى لقد رأيت جلده يتحشف، أي يتطاير، تحشف جلد الحية عنها، حتى كنا نتعرضه على قتبنا فنحمله مما به من الجهد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما ذكره قال: «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير». ومع كل ما أصابه رضي الله عنه من بلاء ومحنة ووهن في الجسم والقوة، وجفاء من أقرب الناس إليه، لم يقصر عن شيء مما بلغه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد.

يعتبر مصعب رضي الله عنه نموذجًا من تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قويًا لا يضعف ولا يتكاسل ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته فيسقط في جحيم النعيم الخادع.

لقد ودع ماضيه بكل ما فيه من راحة ولذة وهناءة، يوم دخل هذا الدين وبايع تلك البيعة، وكان لابد له من المرور في درب المحنة لكي يصقل إيمانه ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئنا راضيا رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من اليؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصرا بدينه وإيمانه، مطمئنا أعمق الاطمئنان، ثابتا أقوى الثبات ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

كان خباب رضي الله عنه فتيا، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم، فكان من المستضعفين الذين عذبوا بمكة لكي يرتد عن دينه، وصل به العذاب أن الصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحماة حتى ذهب ماء متنه.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يألف خبابًا ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابًا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم انصر خبابًا»، فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين، فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها على رأسها، ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو محمر وجهه، قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

وللشيخ سلمان العودة حفظه الله تعليق لطيف على هذا الحديث: يا سبحان الله ماذا جرى حتى احمرّ وجه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقعد من ضجعته؟ وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟

لأنهم طلبوا الدعاء منه صلى الله عليه وسلم؟

كلا: حاشاه من ذلك، وهو الرؤوف الرحيم بأمته.

إن أسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه وأنه صادر من قلوب امضها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النصر، فتستدعيه.

وهو صلى الله عليه وسلم يعلم بأن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة. (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ).

ويلمس عليه السلام من واقع أصحابه وملابسات أحوالهم، برهم بالعذاب الذي يلاقون، حتى يفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء، بمجرد قراءة النص، حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا أن يعيش حالا قريبًا من حالهم ويعاني في سبيل الله بعض ما عانوا.

لقد كان صلى الله عليه وسلم يربيهم على:

أ- التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين واتباعهم، في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب- التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ج- التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان.

غض البصر يطهر المشاعر ويضمن عدم التلوث بالشهوات

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية . ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم!

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة، ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى. ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة، يوصفهما سببا ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع. كلتاهما قريب من قريب.

(ذلك أزكى لهم).. فهو أطهر لمشاعرهم، وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف. وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط. وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها، وجوها الذي تتنفس فيه.

والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية، وهو العلم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم: (إن الله خبير بما يصنعون).

(وقل للمؤمنات: يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن).

فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة، أو الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة!

(ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها)..

والزينة حلال للمرأة، تلبية لفطرتها فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطرة واحد، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله، وتجليته للرجال.

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد - هو شريك الحياة - يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه ويشترك معه في الاطلاع على بعضها المحارم، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع.

فأما ما ظهر من الزينة في الوجه واليدين، فيجوز كشفه لأن كشف الوجه واليدين مباح.